الباب الثاني

ذكت ونوادر

الباب الثاني

ذكت ونوادر

(ومابكم من نعمة فمن الله) (١٢٦)
فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بأخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الأمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد (١٢٧) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي (١٢٨) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي انك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله ، فقال : لاتطلبي ، لأمضي معك الا أن تأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه ».

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « اذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني الى الصحراء ويطلع انسان على الرابية التي تشرف على المقابر ، وينادي : ياعبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلوا ماأمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه ، والناس قد بهتوا لايكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا اذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في اثره ، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت مايقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية الى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود الى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرته ـ وهو بالقرب من منزلي ـ الوفاة ، فقال :« كنت أشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه الا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها مدة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولايشرب ماء ولايأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، انما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما :« ياشيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزا ولاتشرب ماء وأنت صائم أبدا ؟» قال :« صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك ، فطويت ثلاثا وقلت : اجعل ما آكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث ، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء ، فألفت النفس ذلك ، وسكنت اليه فاستمررت على ماأنا عليه ».

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له ، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال :« قد جئت مودعا » قلت :« والزاوية التي قد أعدت لك والبستان ؟» قال :« ياأخي ، مالي حاجة فيهما ، ولا أقيم » وودعني ومضى ، رحمه الله ، وذلك سنة سبعين وخمس مائة .

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماة في التأريخ المتقدم ، أن رجلا كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر ، رحمه الله ، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة ، فقال :« سمعت الساعة عجبا !» قالوا :« وماهو ؟» قال :« مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه ، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما ، فقلت :« ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولمحمد ابن مسعر نصفه بالملك » فقال :« أحج العام ؟ » قلت :« نعم » قال : « البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه » فخرجوا في اثره ليستفهموا منه فرأوه على بعد لايمكنهم لحاقه ، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال .

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين ، رحمه الله ، مسجد صندوديا ء بظاهر الأنبار على الفرات الغربي ، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد امير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفا حليته حديد لايدري أنه أمير المؤمنين الا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير :« ويحك !ادع لأمير المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يدفع ، قل له : ماكان من المرض الذي كان في وجهه ، فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الأكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن أتردد الى هذا المسجد من الأنبار ، فلقيني انسان فقال : لو كنت تتردد الى فلان - يعني مقدم الأنبار - كما تتردد الى هذا المسجد لاستدعى لك طبيبا يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فنمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول :ما هذه الخضرة ؟ - يعني خضرة في الأرض - فشكوت إليه مابي ، فاعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ماقاله لي ذلك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة الى جانبي وقد زال ماكان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق تم قال لي : تحدث معه وأبصر مايلتمسه واكتب به توقيعا وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال :« أنا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعنونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم اقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه مافيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب ليذقلها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين - صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مائة عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجا بزرك (١٢٩) رحمه الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال :« من أين الشيخ ؟» قال :« من غربة » قال:« ألك حاجة ؟» قال :« أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك شاه » قال :« ياشيخ ، اي شيء هذا الحديث ؟» قال :« إن أوصلتني اليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لاأزول حتى اجتمع به وأبلغه مامعي » فدخل خواجا بزرك على السلطان فأعلمه بما قاله الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا ومشطا وقال له :« أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لاأقدر على جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني ماأجهزهن به ، فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه بمعونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم فقال لي :« أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ماتجهز به بناتك ؟» قلت : نعم يارسول الله ، فقال : امض الى فلان ـ وسماه ـ فمر ملك شاه ـ يعني السلطان ـ وقل له : قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت : يارسول الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له؟ قال : قل له بعلامة أنك كل ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان فقال : هذه علامة صحيحة ، وماأطلع عليها غير الله تبارك وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند النوم ، وأنا أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ماطلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك المقرىء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله المقرىء ببغداد ، اذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : ايش كان من خبر الصبية ؟ قال : « ياأبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به سمنا وعسلا يحذكونها به فلم اقدر

عليه ، فبت مهموما ، فرأت الذبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لاتغتم ولاتحزن ، واذا كان غدا فادخل على علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة انك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : ياأبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به على علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيخا لم يعرفه فقال : من أين لك ياأبا بكر هذا ؟ فقال يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ماخطبك ياشيخ ؟ فقال الشيخ : ان ابا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت الذبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : لاتغتم ولاتحزن ، إذا كان غدا فادخل على علي ابن عيسى واقره مني السلام وقل له : بعلامة أنك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ماكان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ياغلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كمة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفا قال : «كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي(١٣٠)ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : ياعبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا

صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة ويبست رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تداووا هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله، ثم اخذوا مسمارا فاحموه ثم كووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ماتقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي دينارين وحمارا ، فبقي الحمار عندي نحوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي حمارا آخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى سؤاله ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في الخندق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ماأحس فيها بما يكون ، فقال : ماأرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين رحمه الله قد جاءني فردني اليه ـ وكان الذي قاله من رميي مزاحا ـ فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .

فبقيت على ماأنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن رجلا وقف علي :و قال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، فقمت وقفت ، فأذبهت امرأتي وقلت : ويحك ، قد أبصرت كذا وكذا ، فقالت : هاأنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال ماكان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورآني قد زال مارآه بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن معمر العليمي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي ابن محمد الأنصاري الفرضي ، المعروف بقاضي المارستان ، أنه قال :« لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من اللؤلؤ فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا ينشده في

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين دينارا ، فسألته علامة ماضاع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ماجعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، ومادفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال :« ولم تدفعه الا لله عز وجل ؟» فقلت :« نعم » فقال:« استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال :« اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضي .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر ، فوقعت في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناء تلك المدينة (١٣١) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانيء الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتا في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي :« ياأبا بكر مارأيك في التزويج ؟» قلت :« ياسيدي انا لاأطيق نفقة نفسي ، فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟» قال :« أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع مايلزمك » فقلت :« الأمر لك » فقال :« ياولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى ــ ولم يترك شيئا من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول :« رضيت ــ وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

فلما كان بعد أيام قال لي :« تهيأ لدخول بيتك ، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجمل والآلات ، ثم أجلست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقمت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت من الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هربي ، فقلت :« إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها من العيوب ماذكرت » فتبسم وقال : ياولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك ماذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ماعليها من الحلي والجوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ماعليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقني الفكر فيه ، فلماخرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال :« جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على مافعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصوله اليه ، فقال لي :« فيم تفكر ؟» فقلت :« في العقد الفلاني ، فاني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقدا يشبهه ، فصاح وقال :« أنت الذي رددت علي العقد ؟» قلت :« أنا ذاك » فقال :« أبشر ، فان الله قد غفر لي ولك ، فاني دعوت الله سبحانة في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقد سلمت اليك مالي وولدي ومااظن أجلي الا وقد قرب » ثم أوصى الي ومات بعد مديدة قريبة رحمه الله ».

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال :« دعانا شاهنشاه بحلب - وهو زوج أخته - فلما اجتمعنا عنده نفذنا الى صاحب لنا كنا نعاشره ونناديمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعيناه ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال :« أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة ، فقلنا :« وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى آخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال :« ماعندي شيء فلاججناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا نقليه على المنقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحنا وكسرنا البيض وأفرغنا مافيه في الصحن ، ووضعنا المقلي على المنقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع مافي الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال: والله ماأفعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنظر من بالباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضريه فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يامولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبته ، فقلت :« أي شيء اذهبها ؟» قال :« الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النيء» فسبحان القادر المبلي المعافي.

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الأكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في

تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من أحياء العرب ، فضيفوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه انبه رفيقه الذي في جانبه وقال له :« أنا نائم أو مستيقظ ؟» قال :« مستيقظ لوكنت نائما ماتحدثت » قال :« تلك القيلة قد ذهبت ومابقي لها أثر » فنظر فاذا هو قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم أي شيء أطعموهم ، قالوا :« نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا أخذنا فراخ غربان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غربان وأطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تنفعه ولاأثرت فيه ، فقال :« تلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان نفعها ».

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بن بطلان (١٣٢) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فرآه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له :« ياولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولابقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ماكان به من المرض ، وضمر جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال :« ماأنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك ، وقلت لك : مالي فيك حيلة ؟» قال :« بلى » قال :« فبماذا تداويت حتى زال ماكان بك ؟» قال :« والله ماتداويت بشيء ، أنا رجل صعلوك مالي شيء ولالي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في دنين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان « بقي من الخل شيء ؟» قال :« نعم » قال :« امش معي ارني

الدن الذي فيه الخـل » فمشى بين يديه الى بيتـه أوقفـه على دن الخل ، فافرغ ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين قد تهرأتا فقال له :« يابني ماكان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجلا أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه اذا تكلم ، فقال له :« ماصنعتك ؟» قال :« أنا مغربل » فقال :« أحضر لي نصف رطل خل حاذق » فأحضره ، فقال :« اشربه »، فشربه وجلس لحظة فذرعه القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخل ، فانفتح حلقه واستوى كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه :« لاتداووا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ماكان يخرجه الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، وضح وهو صبي صغير ، فأقلق ذلك أباه واشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له :« ابصر ماقد ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال :« اريد خمس مائة دينار حتى اداويه وأذهب هذا عنه »، فقال له جدي :« لو كنت داويت عليا ماكنت رضيت لك بخمس مائة دينار » فلما رأى الغضب من جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضلك ، ماقلت ماقلته الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشباب ، واذا أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه هما ، ولا يقول لك سواي :« أنا أداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقها برد في رأسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال :« حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبيين ، فهو يعود اليه بأسره »، فحصلت له الكافور ، ثم اصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ماكان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فألقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفض شعرها من ذلك الكافور ، ونهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر مايقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت ، فاحضرت الشيخ أبا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ماأجد ، فقال :« احضروا لي بطيخة هندي » فاحضرت فكسرها وقال لي :« كل منها ما استطعت» قلت :«يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف آكل هذه مع بردها ؟» قال :« كل كما أقول لك » فأكلت : فما انتهى اكلي منها حتى عرقت وزال ماكنت أجده من البرد ، فقال لي :« الذي كان بك من غلبة الصفراء ماكان من برد حقيقي ».

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب «كتاب النوم والاحلام» من ذكر النوم والأحلام ، وما قيل فيه وفي اوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على اقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعت فيه المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه هاهنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامة قوامة . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وآيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت :« لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ماقالوا: « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله . فدخلت اليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلا للصلوات ، فقلت: «ما هذا ياأمي؟» قالت: «يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت «ارِيني الصابونة التي تغسلين بها ». فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تظن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائحه ، قلت: «يا أمي ، هذه جبنة ! ما هي صابونة» ، فنظرتها وقالت: «صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا». فتبارك الله اصدق القائلين : «ومن نعمره ننكسه في الخلق» (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارىء اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في الستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه أكرم مسؤول ، وأقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .